خطبة صلاة الجمعة 15/8/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أخطاء شائعة (21)– الإضرارُ بالناس)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّايَ على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:135]

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: **«إِنَّ الْعَبْدَ إذا أَخْطَأَ خطيئَة، نُكِتَتْ في قلبه نُكْتَةٌ، فإذا هو نَزَعَ واسْتَغْفَرَ وتابَ، صُقِلَ قلبُه، وإنْ عادَ، زِيدَ فيها، حتى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وهو الرَّانُ الذي ذكره الله {كلا بل رانَ على قُلُوبِهِمْ ما كانوا يكْسِبُونَ}** [المطففين: 14]» [الترمذي].

هذه هي الخُطبة الحادية والعشرون من سلسلة: (**أخطاء شائعة**)

هدفُ السلسلة السعيُ لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قرية أهلها متناصحون مصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً, وشعارها: (أسرتي سكني ومسؤوليتي)، وخطأً في معاملاتنا المالية مرة أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم من النوع الثاني، وعنوانها:

(الإضرار بالناس)

أيها الإخوة:

روي في (موارد الظمآن لدروس الزمان) أنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه عيّن عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه قاضياً على المدينة، فمكث عمر رضي الله عنه سنةً كاملةً لم يختصم إليه اثنان، لم يعقدْ جلسةَ قضاءٍ واحدة، وعندها طلبَ من أبي بكر الصديق إعفاءَه من القضاء، فقال أبو بكر لعمر: (أمِنْ مشقةِ القضاءِ تطلبُ الإعفاء يا عمر؟

قال عمرُ: لا يا خليفةَ رسول الله، ولكن لا حاجةَ لي عند قومٍ مؤمنين عَرَفَ كلٌّ منهم ما لَهُ من حقٍّ، فلم يطلبْ أكثرَ منه، وما عليه من واجبٍ فلم يقصِّر في أدائه، أحَبَّ كلٌّ منهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه، إذا غاب أحدُهم تفَقَّدوه، وإذا مرض عادُوه، وإذا افتقرَ أعانوه، وإذا احتاجَ ساعدوه، وإذا أصيبَ عزّوه وواسوه، دينُهم النصيحةُ، وخُلُقُهم الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، ففيمَ يختصمون؟).

أيها الإخوة:

يغفُل الإنسانُ عن أوامر الشريعة، فيسوق الضرَّ للآخرين، ولو تركَ نفسَهُ من غير مانعٍ يمنعها أو رادعٍ يردعها؛ لأدَّى ذلك إلى انتشار المخاوف، وذيوعِ الشحناء والبغضاء، وتصدُّعِ بناء المجتمع، ولهذا كان ما يمنعُ إلحاقَ الضرر بالنفس أو بالآخرين رُكْناً من أركان الشريعة، وأساساً من أُسُس التشريع الإسلاميّ.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لا ضررَ ولا ضرار، من ضارَّ ضارَّهُ اللهُ، ومَن شاقَّ شاقَّ اللهُ عليه»** قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

والضرُّ: ضدُّ النفع. وقيل: في معنى الحديث وجوهٌ، أشهرها ثلاثةٌ:

الأول: الضررُ ما تضرُّ به صاحبَك وتنتفع به أنت، والضِّرار أن تضره من غير أن تنتفع.

والثاني: أن الضرر هو إيذاءُ النفس، وأمَّا الضرارُ فهو إيذاء الغير.

والثالث: الضررُ هو إيصالُ المفسدة للغير. والضرارُ: هو مقابلةُ الضرر بالضرر.

وعلى كل هذه الأوجه فالضررُ والضرارُ محرمٌ في شريعتنا، فقل لي -برِبّكَ- على أي دليلٍ شرعيّ يعتمدُ موظفٌ في شركةٍ عامةٍ أو خاصةٍ يشي بزميله زوراً وبهتاناً عند مديرِهِ؛ لينحِّيَه ويكونَ في مكانه، والحديثُ يقول: **«لا ضرَرَ ولا ضرار»**؟! الضررُ: ما تضُرُّ به صاحبَك، وتنتفع به أنت.

وعلى أي دليلٍ شرعيٍّ يعتمدُ تاجرٌ في سوقنا التجاري يشكو جارَهُ يبني في دكانه بناءً، فيأتي مَن يوقِفُ له البناءَ، والحديثُ يقولُ: «لا ضررَ ولا ضرارَ»؟! والضِّرارُ: أن تضرَّه من غير أن تنتفعَ.

وعلى أيِّ دليلٍ شرعيٍّ يعتمدُ مَن يستخدمُ الاسمَ التجاريَّ لغيره من دون إذنٍ منه، والحديثُ يقول: «لا ضررَ ولا ضرار»؟! الضررُ: ما تضرُّ به صاحبَكَ وتنتفع به أنت.

وعلى أيِّ دليلٍ شرعيٍّ يعتمدُ مَن يمنعُ جواره في البناء من تركيبِ مصعَدٍ لا يؤذيه وينفعُهم، والحديثُ يقول: «لا ضرر ولا ضرار»؟! والضِّرارُ: أن تضرَّهُ من غير أن تنتفع.

وهكذا.. تجدون الأمثلةَ الكثيرةَ من واقعِ الناس اليوم فيها ضررٌ وإضرارٌ، مخالفين هذا الحديثَ الشريفَ الذي جعلَه العلماءُ قاعدةً من أهمِّ قواعدِ الشرع، وقالوا: فيه من الفقه ما لا يُحصى.

أيها الإخوة:

يؤذي عددٌ من المسلمين أقربَ الناس إليه –فضلاً عن إيذائه الأبعدين– ويشيعُ فيهم قولُ زهير بن أبي سلمى في معلقته: (وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ) وقولُ المتنبي:

والظلمُ مِن شيَم النفوس فإن تجد ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يَظلمُ

بينما يغيبُ عنهم قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾. وقول رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: «لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه» [البخاري ومسلم].

ولكثرة أذية الناس لبعضهم أنشد أبو سليمان الخطابي:

شرُّ السِّباع العوادي دونه وزرٌ والناسُ شرُّهم ما دونه وزر
كم معشرٍ سلموا لم يؤزهم سبعٌ وما نرى بشراً لم يؤذه بشر

فسفسةٌ, طقطقة براغي, وشاية، نِكاية، سعاية، إزعاج... كلماتٌ مختلفاتٌ كلُّها تندرجُ تحتَ عنوانٍ كبير: (إيذاءُ الناس) أو (الإضرار بالناس).

أيها الإخوة:

أهمُّ أسبابِ إيذاء الناس لبعضهم الحسدُ والغيرةُ, وتضاربُ المصالح، ورغبةُ البعض بالسيطرة على الآخر، والخوفُ من الآخر, وضعفُ الإيمان, والجشعُ والطمع, والأثرةُ وحبُّ الذات, ونسيانُ مراقبة الله, والتساهلُ في تربية الأولاد التربيةَ السليمةَ ابتداءً من الأسرة ثم المجتمع؛ ويُضافُ إلى ذلك بعضُ المشكلاتِ النفسيةِ؛ كاستمتاع البعض بإيذاء الآخرين.

وبين يديَّ نصوصٌ كثيراتٌ تحذِّرُ من الإيذاء:

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عند مسلم من حديث أبي هريرة: «**المسلمُ أخو المسلم، لا يظلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ. التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا** –ويشير إلى صدره– **بِحَسْبِ امرئٍ من الشَّرِّ أن يَحْقِر أخاهُ المسلمَ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرَامٌ: دمُهُ، وعِرْضُهُ، ومَالُهُ**» [البخاري ومسلم].

– نظر صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة المشرفة وقال: «**ما أطيبَك، وأطيبَ ريحك، ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والذي نفس محمدٍ بيده، لَحُرمةُ المؤمن أعظمُ عند الله حرمة منك، ماله، ودمه، وأن نظن به إلا خيراً**» [رواه ابن ماجه].

–قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟**» قالوا: المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: «**إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنيَتْ حَسَناتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار**» [مسلم]

ثم الأذيةُ لها صورٌ كثيراتٌ أيضاً، فالعينُ تؤذي، واللسانُ يؤذي، واليدُ تؤذي، والرجلُ تؤذي، والبطنُ يؤذي، والقلبُ يؤذي..

فأذى العين: أن تنظرَ إلى محارم الله، وأن تتبعَ عوراتِ المسلمين.

وأذى العين: أن تنظرَ إلى نِعَمِ أنعم اللهُ تعالى بها على عبدٍ من عبيده، فتتمنى زوالَ هذه النعمة، وتعترضَ على عطاء الله سبحانه وتعالى.

وأذى اللسانِ الغيبةُ والنميمةُ والكذبُ والبهتانُ والهمزُ واللمزُ، وقد مرَّ عليه الصلاة والسلام لما عُرِجَ به إلى السماء على أقوامٍ لهم أظفارٌ من نحاسٍ يخمشون وجوهَهم وصدورَهم، فسألَ جبريلَ عن هؤلاء؟ قال: «**لما عُرِج بي مررتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نُحاسٍ يخمشون وجوهَهُم وصدورهم فقلتُ: مَنْ هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**» [رواه أبو داود من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه].

وأذى اليد والرجل: البطشُ والقتلُ والسرقةُ والسعيُ في الإضرار بالناس.

وأذى البطن: أكلُ الحرام مِن رباً ورشوةٍ وأكلٍ لأموال الناس بالباطل، وأكلٍ لأموالِ اليتامى والضعفاء قال الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]

وأذى القلبِ: الغلُّ والبغضاءُ والضغينةُ والحقدُ والشحناءُ، يقول عليه الصلاة والسلام: «**دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم، الحسدُ والبغضاءُ، والبغضاءُ هي الحالقة حالقةُ الدين لا حالقةُ الشعر**» [رواه أحمد والترمذي من حديث الزبير بن العوام].

ختاماً أيها الإخوة:

إذا كان الإضرارُ بالناس ممقوتاً شرعاً وعقلاً، وربما زلَّتْ قدمُ البعضِ فوقعَ في هذا الإثم، فما العلاجُ؟

علاجُه بأربعة:

- التوقُّفُ عن الإضرار بالآخرين حالاً.
- وإعادةُ حقهم إليهم.
- وكثرةُ الاستغفار لله تعالى.
- ولزومُ مجالس العلم والصالحين.

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**الدواوينُ ثلاثةٌ: ديوانٌ لا يغفرُهُ اللهُ: الإشراكُ بالله يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾** [النساء: 48] **وديوانٌ لا يتركُه اللهُ: ظلمُ العبادِ فيما بينهم حتى يقتصَّ بعضُهم من بعضٍ، وديوانٌ لا يعبأُ اللهُ به: ظلمُ العباد فيما بينهم وبين الله، فذاك إلى الله: إن شاءَ عذَّبه، وإن شاءَ تجاوزَ عنه**» [رواه البيهقي في الشعب والحاكم في المستدرك].

نسألُ اللهَ تعالى أن يُعينَنا على تصحيح أقوالنا وأفعالنا حتى يعجِّلَ لنا بالفرج.

والحمد لله رب العالمين